القراءة المفيدة (١)

قيل ارسل احد الخلفاء يطلب احدَ العلماء ليسامرهُ . فلما جاءهُ الرسول وجدهُ جالساً وحواليهِ الكتب يقرأ فيها. فقال لهُ ان أمير المؤمنين يستدعيك . فقال قل لهُ: عندي قوم من الحكماء احادثهم . فاذا قرغت منهم حضرت. فلما عاد الخادم الى الخليفة واقضى اليهِ بذلك قال : ويحكَ من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندهُ. قال والله يا أمير المؤمنين ما كان عندهُ احد. قال فأحضره الساعة كيف كان . فلما حضر العالم قال لهُ الخليفة من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك فانشد :

لنا جلساءٌ لا نملُّ حديثهم ... ألبَّاءٌ مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى ... ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلت اموات فلم تبد امرهم ... وان قلت احياء فلست مفنَّدا

وقال شيشرون الخطيب الروماني المفوّه : الكتب غذاء الشباب وبهجة الشيخوخة . هي زينة في ايام الاقبال وازجاء والملجأ في الساعات السود . رفاق لا تملهم في القيل او في اثناء السفر او في الريف . وقال شكسبير على لسان احد ابطاله : هذه مكتبتي واية دوقية تساويها . وقال اولفر غولد صمث : اذا قرأت كتاباً نفيساً للمرة الاولى شعرت انني كسبت صديقاً جديداً. واذا قرأتهُ ثانية شعرت بأني اقابل صديقاً قديماً . وقال بيتشر الواعظ الاميركي الشهير: ان مكتبة تتعهدها كلَّ سنة باضافة شيء اليها ناحية نبيلة من حياة كل انسان . ويجب على الانسان ان يقتني كتباً . فالمكتبة الخاصة ليست من كماليات الحياة بل من الضروريات التي لا يستغنى عنها . وقال جون رسكن : الحياة قصيرة وساعاتها الهادئة نادرة فلا تضيعها سدًى في قراءة كتاب سخيف . اما الكتب النفيسة فيجب ان تكون في كل بلاد متمدينة في متناول كل انسان

ولو شئت لمضيت اعدد اقوال العلماء والحكماء والشعراء والفلاسفة في مقام الكتاب من الحضارة بوجهٍ عام ومن الثقافة الفردية بوجهٍ خاص وما في القراءة من النشوة دونها لشوة الراح والفائدة التي لا توزن بالدرهم والدينار

والواقع ان القراءة سياحة العقل بين آثار الفكر الانساني . فهي آناً في رياض من هذه الآثار فواحة العبير — هنا الاشعار الغنائية والقصص التي لا تبلى جدتها السنون . وهي آناً بين اجادٍ كأنها اطلال الحضارات القديمة فخمة كالكرنك راسخة كالاهرام — هنا الملاحم الشعرية وكتب التاريخ والحكمة والعلم يتلمس فيها الانسان اشعة النور من خلال الظلمات المطبقة على الذهن

(١) خطبة لاسلكية اذاعها رئيس تحرير هذه المجلة من محطة راديو مصر في ٨ نوفمبر الماضي

الانساني . وهي آنا آخر في معارفه للعواطف والارادات والمطامع والعواطف — هذا سير النظام والعظيمات من الناس وما تحلل صدور حياتهم من دموع وآهات وضحك وضجيج وحب وانتقام. فانت في كل هذا كأن مواكب الانسانية تمر امامك وقد لبست من النثر والشعر حلة جمالها الاسمى

وحب القراءة ثمرة الثقافة الصحيحة بل هي مقياسها الذي لا يخطىء . وقد قال احد الحكماء قل لي ما تقرأ من الكتب أقل لك من أنت

لماذا نقرأ

قد يقرأ الانسان ليوسع نطاق خبرته . فالحياة قصيرة محدودة وفي قرارة النفس نزوع الى التملص من قيودها وحدودها ، فنعمد إلى ميادين الخيال ومروج الفكر ، نجول في جنباتها لنجني منها ادب الذاهبين ومعرفتهم وحكمتهم . ثم ان بعض الناس يقرأ مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فلا يقر له قرار إلا باستكشاف الاسرار واستجلاء الخفايا . وسليم من يقرأ رواية او قصيدة او رسالة لانه في اثناء قراءتها يصبغ عليها لوناً من شعوره فيحس أن ثمة صلة بين صور هذه الرواية وصور خياله واعية او غير واعية ، فكأنه دائب في عالمها ، وهذه ناحية من نواحي ملكة الابداع او التوليد لان الذي يطالع على هذه الطريقة يحس في الغالب احساساً خاصاً به ، او يصل الى نتائج غير النتائج التي يقصد اليها الكاتب ، فكان القراءة حافز نفسي يحفزه الى الكشف عن الاحاسيس والآراء الكامنة فيه كالجمر تحت الرماد

وبعضهم يقرأ ليفر من عالم الحقيقة الى عالم الخيال ، وغيره على النقيض من ذلك يقرأ ليرهف احساسه بما يقع حوله ويصقل حكمه في حوادث يومه . وثمة طائفة تقرأ لان الحركة والمغامرة والاقدام والنضال في ما تطالعه تسهرها . تقابلها طائفة اخرى تنأى في مطالعتها عن ميادين العمل العنيف ، الى سهول التأمل الهادىء الرصين

وقد يؤخذ قارىء ما بسير الرجال . ويفتتن آخر بسيرة الحياة خلال العصور من النطفة الاولى الى يومنا هذا . وقد يعنى احدهم بصور العائلة ولا يهتم غيره الا بارتقاء الفكر . وقد يرى احد القراء ان عصراً ما ، ليس الا مسرحاً للرجال والنساء الذين ظهروا فيه وبرزوا وانهم في نظره جزء ما يستحق العناية والدرس . ولكن رجلاً آخر قد يرى ان الشخصيات الكبيرة ليست الا طريقة من الطرق التي يفصح بها عصر من العصور عن ذاته نفسه . وقد يرغب الواحد في الاسلوب البليغ الجزل ، وتجاهله آخر لان غايته موجهة إلى تبين البراعة في تحليل الاشخاص وترتيب الوقائع وسرد الادلة مثلاً

هذه طائفة قليلة من البواعث التي تبعثنا على المطالعة . وهي تختلف باختلاف الناس ، بل هي تختلف في الانسان الواحد باختلاف ساعات النهار والحالة العقلية والنفسية السائدة في ساعة ما . والباعث السائد في ساعة القراءة هو الذي يعين موضوعها واليه يكون مرد الاختيار

الغرض من اقتناء الكتب

والواقع اننا نقتني الكتب لغرض من ثلاثة اغراض بوجه عام . يقتنيها بعض الناس للزينة. فهم يعلمون قيمة العلم ، وان العلماء والحكماء لهم صدر النادي من اقدم العصور إلى يومنا هذا ، وان المؤلفات النفيسة تأتي بعد الكتب المنزلة في اعتبار الناس واحترامهم ، فيرون ان اقتناء الكتب من ادوات الزينة والمباهاة التي يزدان بها البيت ، ويغالي بعضهم في ذلك فيحتم ان تجلَّد تجليداً فاخراً تتسبغ هي والستائر الحريرية الكثيفة والصحاف الخزفية البديعة والادوات الفضية الثمينة ، على البيت صفة المحتد النبيل والحاضر الكريم . وقد قرأت ان احد أثرياء الاميركيين بنى قصراً فخماً ، والقصر لا يكون كاملاً في نظره من دون غرفة خاصة بالكتب. فأمر المهندس بتوجيه العناية الخاصة الى تلك الغرفة فلما تمَّ بناء القصر : أخذ الثريُّ يجمع من الكتب النفيسة ما كان أجودها طبعاً وأغلاها ورقاً وأنفرها تجليداً وجاء بيته وأمر برصف الكتب على الرفوف ، فوجد ان عرض الكتب أكبر من عمق الرفوف فتظهر فيها الكتب بارزة كأنها قذى في العين . فعرض عليه المهندس ان يزيد عمق الرفوف ولو تأخر اعداد هذه الغرفة فابى الثريُّ وقال انهُ يفضّل ان تقطع مقدار بوصة من الكتب وتترك الرفوف كما هي

قد تكون هذه النقعة نادرة « كاريكاتورية » موضوعة لبيان التطرف والمغالاة في اقتناء الكتب للزينة فقط . وان الثريَّ لم يحتفر بالكتب وانما حفل بمنظرها وجلودها الفاخرة المذهبة

ولكنني أؤكد لكم انني اذا دخلت داراً مهما تكن صغيرة ، ولم اجد فيها كتاباً او مجلة ، تدلُّ على حياة النفس في تلك الدار ، شعرت انني في ارض قفر خالٍ من الخضرة والماء ، فاسأل نفسي كيف يقضي اصحاب هذا البيت ساعة من ساعات الفراغ . ومع ذلك افضل بيتاً خالياً من الكتب على بيت يباهي بها ولا يقرأها . فاصحاب البيت الاول على الاقل يتصفون بالصراحة بان القراءة لا تهمهم واما اصحاب البيت الثاني فيرغبون في المباهاة بصفة لا يتصفون بها ، وهو من عيوب الخلق

ويقتنيها بعضهم اداة للعمل كالمشرط للجرَّاح ، والزاوية للمهندس . ويغلب ان تكون الكتب التي من هذا القبيل كتباً فنية . فالطبيب يجب ان يقتني الكتب الطبية الحديثة والمجلات الطبية السائرة في الفرع الذي انقطع لهُ ، وعليهِ ان يدمن مطالعتها ليجاري سير الاكتشاف والاستنباط . وهذه المطالعة امانة في عنقه للجمهور الذي يعهد اليه في كشف غمة المرض بالتشخيص الصحيح والعلاج الموفق . فالكتب الطبية اداة من ادوات عمله كالمشرط والمجهر . وعلى المحامي ان يقتني كتب القانون والتاريخ وعلم النفس التي يرجع اليها ويستشهد باقوال شرّاحها للوقوف على حكمة السابقين قضاة واساتذة ومحامين . ولكن الكتب التي من هذا القبيل لا تخلق الرجل ، وانما هي تمكنهُ من العمل

ولا بدَّ لكل بيت من ان يضمَّ بين جدرانه كتاباً من هذا القبيل، ويجب علينا ان نعلم اولادنا تناولها . ولا بدَّ لكل بيت من ان يحتوي على مصوَّر جغرافي ومعجم صغير ودائرة معارف مبسطة وكتب في الاوليات والمبادئ . فاذا كان حديث اليوم يدور حول حرب في البلقان جلس الاولاد الى والدهم فيفتح امامهم المصوَّر الجغرافيَّ ويريهم اين تقع الاستانة وبلاد اليونان وبلاد البلغار ومضايق الدردنيل . واذا عرضت للرك القارئ في صحيفة لغة لم يدرك معناها هداهُ والدهُ ، او هدته والدتهُ ، الى المعجم ليبحث عن معناها فيه ، واذا جاء ذكر رجل من مشهوري رجال السياسة او العلم ، فتح دائرة المعارف او ما يقابلها للبحث عن عصر الرجل وآثاره

ان مطالعة نصف ساعة بهذه الطريقة ، تعلم الولد ، من الجغرافية او اللغة أو التاريخ اكثر مما يتعلمهُ خلال ايام في دراسة الكتب المعيَّنة لهُ في المدرسة ، فهو يتفرَّ من هذه لانها تمثل في نظره ما يجب عليه لا ما يتوق اليه ويرغب فيه من تلقاء نفسه

وقد تقتني الكتب ، كما تمكّن اواصر الصداقة مع الصحاب ورحم الله شوقي حيث قال:

انا من بدَّل بالكتب الصحابا لم اجد لي وافياً الا الكتابا

تيحت لي زيارة احدى كليات البنات في اميركا سنة ١٩٢٤ وقد خصصت الكلية احد مبانيها دار للكتب . وفي هذه الدار غرفتان استرعتا نظري الاولى عاطلة من الزينة نظمت في داخلها رفوف الكتب والموائد والكراسي من الخشب الصلب . وفيها تجد الطالبات مكبَّات على البحث والموازنة والتحقيق ، يعددن فيها دروسهنَّ او امتحاناتهن او رسائلهنَّ . وكل العيون متجهات إلى العمل الخاص الذي يشغل الذهن ، فلا تكاد ترتفع عيناك لرؤية الداخل . وثمة غرفة اخرى فيها الطنافس الوثيرة ، ورفوف الكتب قريبة المنال ، وفي الموقد نار مشبوبة . هنا تجلس الفتيات وقد مضت فترة العمل والبحث ، ينصتن الى اصوات تتحدث معهن من خلال السطور في صفحات الكتب الخالدة . الكتب في الغرفة الاولى تستعمل ادوات للعمل . وأما الكتب في الغرفة الثانية فتتخذ اصحاباً ، يرشدون بحكمتهم ، ويثرون بآدابهم ، ويحفزون الملكات بعرض صور الانسانية في احوالها المتباينة ، وهي تسير ، آناً تتقدم وآناً تتعثر ، في طريقها نحو المثل الاعلى

وهنيئاً للبيت الذي لا يخلو من كتب هذه صفتها ! يؤوب الرجل من عمله الجاهد ، أو تخلد السيدة الى راحتها بعد جهد النهار المضني ، فيجلس في كرسي مريح والى يساره مصباح متألق ، فيختار من الكتب ، الصديق الذي يلائم حالتهُ النفسية الخاصة . فقد يختار ديوان المتنبي فيقرأ فيه قصيدة من قصائده الخالدات يرى في خلالها عثير الحرب ويريق الاسنة وصليل السيوف ويسمع عبارات الفخر ، أو مجلداً من الاغاني في طبعتها الجديدة التي اخرجتها دار الكتب ، فيطالع من نوادر الاقدمين وآدابهم ما يروق النفس ويبهج الخاطر . أو قد يختار قطعة من كارليل ، فيرتد بها على أجنحة الخيال الى عهد الثورة الفرنسية ، أو صفحة

من يستفيد منها ان تجاد المكاتب المصرية القديمة ، او رواية لاناتول فرانس فيجدنيها الحكمة النادرة والنقد اللاذع في ثوب شيق كالطيور المحنطة ، او نسخة من كتاب علمي بليغ فتتعرف الى اسرار الاحياء وخباياها او يرود مع أحد اساطين العلم رحاب الفضاء

كيف نقرأ

النظام هو اساس القراءة المفيدة . والقراءة المفيدة ركناها الاستزادة أو الاستلهام . فاذا كنت ترمي إلى الاستزادة أي إلى توسيع نطاق معارفك بالاطلاع على مباحث الكتاب والعلماء والفلاسفة وجب أن تجري على الطريقة الآتية : خذ كتاباً يروقك . واقرأه على مهل . وبعد أن تأتي على فصل فيه ، أو على فقرة من فصل ، اطبق كتابك ، واغمض عينيك ، وحاول أن تلخص في ذهنك ما فهمتهُ من معنى ما قرأت . واذا كان لك غرض خاص من المطالعة ، فيجب أن تدوّن ما فهمت . ثم سر في مطالعة الكتاب على هذا النمط . ثم اترك الكتاب سنة أو سنتين او عشر سنوات — فأعمار الكتب الخالدة لا تقاس بالسنين — واعد الكرة عليه . تجد ان فيك له قد تحوّل بتحول نظرك إلى الحياة وتفتح مغالق ذهنك واتساع نطاق خبرتك . فان فعلت ذلك ، فقد اضفت إلى حكمتك حكمة رجل آخر . واذكر ان حكيماً اميركيًّا قال انهُ أخذ أحد مؤلفات كارليل وهو في العشرين فقرأه وخرج منهُ صفر اليدين فأعاد الكرة عليهِ وهو في الخامسة والثلاثين ، فبدا له فيهِ من المعاني ما أسبغ على الكتاب حلة الانظام . وكان وهو يروي لي هذه الحكاية ، في الخامسة والخمسين من العمر ، يقضي ساعات الفراغ في مطالعة ذلك الكتاب للمرة الثالثة . وقد قرأت بعض الفصول في كتاب امرسن «عمائر الرجال» عشر مرات على الاقل . وكلما شعرت بتعب او مرارة او خيبة اعود اليهِ فاقرأ رسالتهُ في « منافع الرجال العظام » Uses of Great Men

اما القراءة للاستلهام فسرُّها ان عبارة واحدة في فصل لكاتب ، او صورة فردة او رأياً سيق في معرض الكلام ، قد يحفزك الى التفكير والتصوّر ، فتصرف النظر عما تقرأ حيناً لكي تسترسل مع صور خيالك او افكارك المتداعية . وفي هذه الحال يصح ان تدوّن على هامش الكتاب هذه الصور أو الافكار الشاردة ، لان اقتناصها بمذمورها في تيار الوعي متعذر

واحذر تعوّد قراءة النتف . فقد شاعت في هذا العصر ، عصر السرعة ، صحف ومجلات تجمع من العلم والادب والتاريخ نتفاً يتسلى بها القراء فيكتفون بها عن قراءة المقالات الوافية والكتب المستفيضة التي تقتضي مطالعتها حصر الفكر وكدّ الذهن . اما قارئ النتف فيتسلى بها مهلة ما يقرأها ثم ينساها في الغالب ، وهو يظن انهُ وعى العلم والادب والتاريخ باطلاعهِ عليها

واذا رغبت عن ذلك ضعفت ذاكرتهُ وخلطت بين الحقائق خلطاً شائناً

***

وقد كنت اردتُ ان اتناول موضوع ماذا نقرأ . ولكني اخشى الاطالة فيبادركم السأم فتوصدون دوني ابوابكم . الافطة وابقى هنا وحدي اتكلم في الهواء . وقد تناول هذا الشق الادبي فاصرح في زاويةٍ على أن المسألة التي لا استطيع التجاوز عنها هي النقص المهيب في المكتبة العربية وفي استطاعتنا تلافيه . ذلك ان علماء الغرب وكبار كتَّابه لا يألفون من الاشتراك مع اصحاب بيوت النشر في وضع سلاسل من الكتب التي تتناول اصول المعرفة البشرية باسلوب قريب التناول فتخرجها بيوت النشر في طبعات رخيصة الثمن يسهل على كل راغب اقتناؤها والتمتع بما تحتوي عليهِ من درر العرفان . واذ اشرتُ في بدء كلمتي الى المصوَّر الجغرافي ودائرة المعارف وما اليها من الكتب التي يجب ان تكون في كل بيت فعلت وفي النفس حسرة لان بعض ما اريدهُ من هذه الكتب غير متاح لنا الآن بالشكل الذي يغري بالقراءة ويحببها الى الصغار

ولكن الامرَ ليس متعذراً . فعندنا في نواحي العلم والادب والفلسفة رجال يستطيعون ان يضعوا — تأليفاً واقتباساً وترجمة — هذه الكتب على ما نريدها

ولكن الناشرين ومن يتصل بهم من الكتَّاب يشكون عدم الاقبال على ما ينشر من الكتب . فالاَّ يغري الناشر والمؤلف على السواء بالاقدام على الترسم في التأليف والنشر وهي شكوى صحيحة الى حدٍّ بعيد[1] . اذ ينشر بين الكتب العربية كتاب يطبع منهُ ثلاثة آلاف نسخة وتنفد في سنة او سنتين او ثلاث سنوات — استثني من ذلك الكتب المدرسية اذ ان الطلاب يتتابعون عليها للدراسة — ومع ذلك فالاقوام الناطقة بالعربية يبلغون سبعين مليوناً وتسري في عروق ابنائهم ثورة تدفعهم الى طلب العلم والاستزادة من الحكمة ، والمدارس تخرج كل سنة الوفاً من الطلاب المطلعين على اصول العلم والتاريخ والادب . فلماذا لا يقرأون ؟ ولست اخطئ هذا الحكم عليهم جميعاً فاني اعرف ان طائفة ممتازة منهم تقرأ وتحسن اختيار الكتب والصحف التي تقرأها . ولكن جلَّهم لا يقرأ ما يجب عليهِ ان يقرأ . والاَّ لما كنا نشهد هذا الركود في ميدان التأليف . والواقع ان المسألة خطيرة كلَّ الخطورة تتصل بالاركان التي يقوم عليها التعليم وهل يؤتي الثمار المطلوبة او لا يؤتيها

ولا يخفى إن الشيء الثمين الاساسي في العلم والتعليم انما هو الانطباع بروح العلم واسلوبهِ . وتشرُّب الطالب حب البحث عن الحقائق والاستزادة منها . وحفز ملكات العقل الى النشاط الذي يمكِّن الرجل من تكوين رأي مستقل أو ابداع شيء جديد . وواضح إن الاكتفاء بالكتب الدراسية ليس السبيل القويم المفضي إلى هذه الغاية النبيلة ، التي لا مندوحة عنها في كل تعليم سليم وارتقاء صحيح

(١) لا ريب ان الناشرين لم يتوسلوا بكل ما يسع التوسل به لطبع الكتب الجيدة وترويجها وهذا يستحق بحثاً على حدة

وارى ان وزارة معارفنا الجليلة تملك علاج هذا الضعف في ناحية من أهم نواحيه

وقد اتعمت النظر في طريقة هذا العلاج ، فرأيت ان اقترح على وزارتنا الجليلة تعيين لجنة من بعض رجال الوزارة وبعض الادباء والنقاد المعروفين بحصافة الرأي واستقلاله لاختيار اثني عشر كتاباً كل سنة — او أكثر أو اقل — من نفيس المطبوعات العربية الحديثة تفرض مطالعة ستة منها على مدرسي المدارس باشراف الناظر ، والستة الاخرى تفرض مطالعتها على طلبة الفرق المتقدمة في المدارس الثانوية في فرقها باشراف المدرسين

وليس هذا العمل بدعةً . فقد جرت جامعات الغرب على تكوين حلقات للطلاب والاساتذة ، تجتمع اجتماعات دورية . وهي من الوسائل الفعالة لاحكام الصلة بين المدرسين وتيارات الفكر الحديث من ناحية ولتثبيت عادة القراءة المفيدة في الموضوعات الخارجة عن نظام الدراسة في نفوس الطلاب . ولنفرض ان اللجنة ستة من المدرسين — او الطلاب — تجتمع مرة في الاسبوع او مرة في الاسبوعين . فيفرض على احد اعضائها ان يقرأ كتاباً معيناً فيقرأه ويلخصهُ في رسالة يتلوها في الاجتماع المعيّن له . وفي الاجتماع الثاني يفحص مدرس آخر ما فعلهُ زميلهُ ولكن في كتاب آخر . وبعد تلاوة الرسالة يتناقش الحاضرون في موضوعاتها ومعانيها ويتحاورون وهذه الطريقة تحفز ملكات التفكير والنقد العلمي المنزه الى النشاط . ثم هي تفيهم عن وجوب الاتفاق منفردين على بعض الكتب التي يرغبون في مطالعتها ولكن غلاء ثمنها يحول دون اقتنائهم لها . فاذا تمكنت وزارة المعارف الجليلة من وضع نظام مبني على مثل هذه المبادىء فانها تؤدي للنشر الثقافة الصحيحة خدمة جلّى

اولاً — تحكم الصلة بين المدرسين ومؤلفي اللغة العربية المعاصرين

وثانياً — تخلق في نفوس الطلاب رغبة في القراءة المفيدة التي لا معنى للثقافة من دونها

وثالثاً — يدفع المؤلفون والمترجمون على اتقان ما يكتبون وينشرون اذ يعرفون ان كتبهم قد تختار للمطالعة والمناقشة في الاجتماعات المدرسية المذكورة

رابعاً — تخلق لنا جيلاً يتوق إلى القراءة المفيدة ويقبل عليها . وهذا من أقوى البواعث للمفكر على التفكير ، وللمؤلف على التأليف ، وللناشر على النشر

وكل هذا لا يكلف الوزارة اكثر من ثلاثة آلاف جنيه في السنة أو أربعة آلاف على الاكثر . لانهُ إذا افترضنا انها قررت ان تبتاع من كل كتاب تختارهُ اللجنة الف نسخة — لتوزعها على المدارس — بلغ عدد النسخ التي تبتاعها ٢٤ الف نسخة متوسط ثمن النسخة منها قد لا يزيد على ١٥ غرشاً — فالمبلغ لا يزيد على ٣٦٠٠ جنيه . وهي تنفق اضعاف هذا المبلغ في اعانة المعاهد والمدارس والجمعيات ، فاحر بها ان تنفقهُ في سبيل تشجيع التأليف وتربية ملكة القراءة المفيدة في نفوس الشبان والشابات

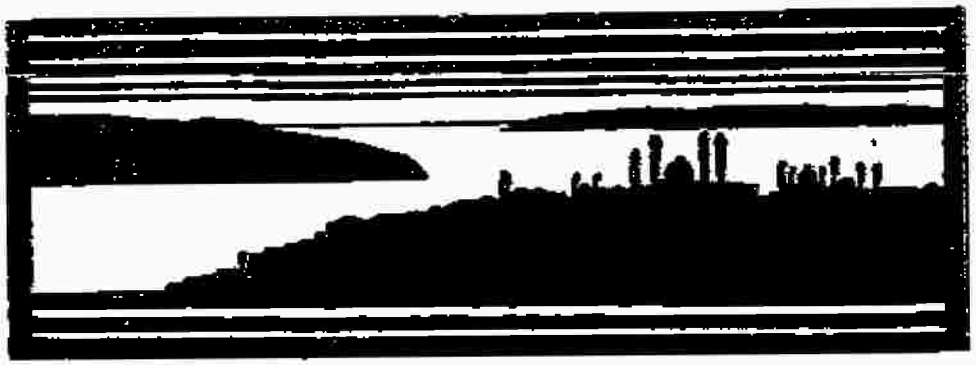

الی روحی

حافظ وشوقی

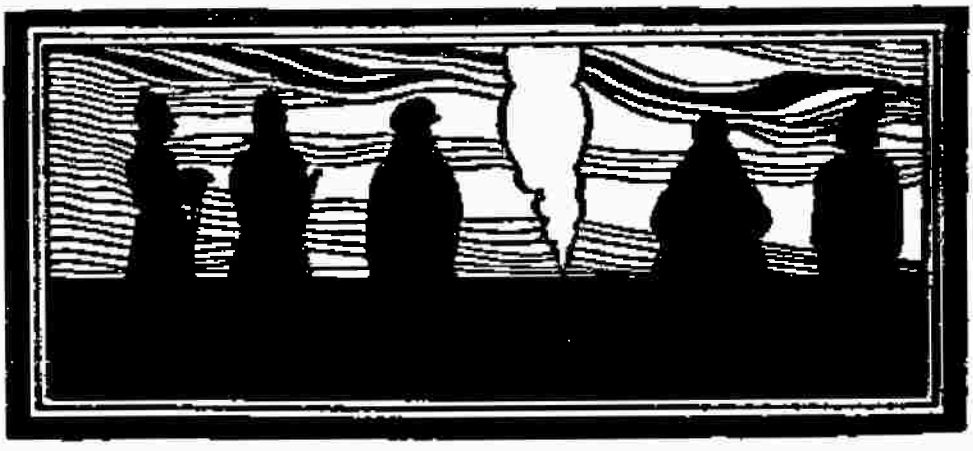

صورة رمزية عنوانها « آفاق الشعر او اسمة »